International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
Vol. (3), No. (7)
IJESA
July 2024
الإصدار (3)، العدد (7)

الأدب والتاريخ وهياكل التراكم المعرفي: دراسة في إيريك آورباخ ومحمد عابد الجابري

"البنيوية جن يلابس الثقافة العربية، إذ في هذه الثقافة بنيات إزلية يجب الكشف عنها بأي ثمن "[1]

فوزي سليسلي
دكتوراه في الأدب (النقد الأدبي)، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية
fslisli@kfu.edu.sa

ملخص البحث

البحث يقارن بين طريقتي نظر إريك آورباخ ومحمد عابد الجابري إلى علاقة الأدب والتاريخ وهياكل التراكم المعرفي. انتقد آورباخ الطريقة التي نظر بها الأوروبيون إلى الأدب والتاريخ، والتي أدت إلى تقديس صورة مثالية للحضارة اليونانية القديمة على حساب واقع الطبقات الشعبية. كما انتقد مبدأ "الفصل بين الأساليب" في الأدب الأوروبي الذي أهمل الواقع الاجتماعي للطبقات الدنيا. من جهة أخرى، يشير الجابري إلى أن الثقافة العربية تفتقر إلى إطار زمني موحد ينظم تسلسل الفكر والمعرفة، مما أدى إلى "حلقة مفقودة" في الوعي التاريخي العربي، على عكس الثقافة الأوروبية التي تمتلك إطاراً مرجعياً ثابتاً لتأريخ فكرها. وبذلك، يتناول البحث تأثير البنى المعرفية والأدبية على قراءة التاريخ وتشكيل الوعي التاريخي في الثقافتين الأوروبية والعربية.

الكلمات المفتاحية: الأدب والتاريخ، هياكل التراكم المعرفي، إريك آورباخ، محمد عابد الجابري، البنيوية والثقافة العربية، قاعدة "الفصل بين الأساليب"، الوعي التاريخي، الإطار المرجعي المعرفي، الحلقة المفقودة في الثقافة العربية، تشكيل الصورة المثالية للحضارة اليونانية.

[1] Abdelwahab Bouhdiba, Culture et Société, Publications de l'université de Tunis, 1978, p. 206.

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4
E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (7)
IJESA
July 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (7)

Literature, History, and the Structures of Knowledge Accumulation: a Study of Eric Auerbach and Muhammad Abed Al-Jabri

Fouzi Slisli
PhD in Literature (Literary Criticism), King Faisal University, Kingdom of Saudi Arabia
fslisli@kfu.edu.sa

Abstract

The research compares the perspectives of Eric Auerbach and Muhammad Abed al-Jabri on the relationship between literature and history, as well as the structures of knowledge accumulation. Auerbach criticized the way Europeans viewed literature and history, which led to the sanctification of an ideal image of ancient Greek civilization at the expense of the reality of the lower classes. He also criticized the principle of "separation of styles" in European literature, which neglected the social reality of the lower classes. On the other hand, Al-Jabri points out that Arab culture lacks a unified temporal framework that organizes the sequence of thought and knowledge, leading to a "missing link" in the Arab historical consciousness, unlike the European culture, which has a stable frame of reference for the history of its thought. Thus, the research addresses the impact of cognitive and literary structures on the reading of history and the formation of historical consciousness in both European and Arab cultures.

Keywords: Literature and History, Structures of Knowledge Accumulation, Eric Auerbach, Muhammad Abed Al-Jabri, Structuralism and Arab Culture, the Principle of "Separation of Styles", Historical Consciousness, the Cognitive Frame of Reference, the Missing Link in Arab Culture, the Formation of the Ideal Image of Greek Civilization.

المدخل والمناقشة

ابتدأ الحديث من الأدب والنقد الأدبي، عن كتاب إريك آورباخ: Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature [2] الذي نشر عام 1953. إنه كتاب معتمد في معظم أقسام الأدب في الغرب، يدرس كمقدمة لمقررات النقد الأدبي، خصوصا الفصل الأول من الكتاب الذي يقارن نص الملحمة اليونانية القديمة الأوديسا التي تنسب لهوميروس (Homer, The Odyssey) مع نص من كتاب العهد القديم الذي يعتمده اليهود والمسيحيين البروتستانت ككتاب مقدس. جرت العادة أن يدرس هذا الفصل من الكتاب في مقررات النقد الأدبي على أساس أنه مقارنة بين الموروثين الأدبيين للثقافة الغربية: الإرث اليوناني القديم والإرث الديني اليهودي-المسيحي، لإعطاء الطلاب فكرة عن انطلاقة الأدب في الثقافة الغربية. هكذا كانت الأمور في قاعات تدريس الأدب منذ عقود ولاتزال. إلا أن القراءة المتمعنة لكتاب آورباخ تظهر أشياء أخرى.

أولاً الكتاب ضخم يحتوي على 700 صفحة تقريباً. ثانياً، الكاتب عالم موسوعي من النوع الذي يقرأ ويكتب في خمس أو ست لغات أوروبية. الاستشهادات في الكتاب من النصوص الأصلية وفي لغاتها الأصلية (فرنسي، إنجليزي، إيطالي، ألماني). الشيء الأكثر إثارة هو السياق التاريخي الذي كتب فيه الكتاب. كأستاذ جامعي يهودي في ألمانيا أثناء الحكم النازي، اضطر الكاتب أن ينفذ بجلده وأن يهرب من بلده فاتجاه المجهول. كتب هذا الكتاب الموسوعي في رحلة الهروب أثناء توقفه في إسطنبول وهو يبحث عن بلد يأويه. ولعدم توفر المكتبات والمراجع، كتب آورباخ الكتاب بالاعتماد على الذاكرة.

الكتاب أكبر من أن يكون مقدمة تقارن النصوص المؤسسة للأدب الغربي، وقد أظهر الباحث جيمس بورتر (James Porter) في مقال حديث أن الفصل الأول من الكتاب ليس مقارنة بين النص اليوناني القديم والنص الديني، بمعنى أن آورباخ لا يحاول إظهار أوجه الشبه بينهما، وإنما يحاول إظهار التناقض بينهما ويحتوي الكتاب على رفض ضمني للنص الكلاسيكي وتفضيل ضمني للنص الديني. [3] هذا لا يتضح جلياً في الفصل الأول، لأن الكاتب يقتصر فيه على الوصف المحايد دون إعطاء حكم، ولكن يتضح من بقية الكتاب ومن الإطار النظري للكتاب.

[2] Princeton, NJ: Princeton University Press, 1974, orig. 1953.
[3] James Porter, "Erich Auerbach and the Judaizing of Philology," Critical Inquiry 35, Autumn, 2008.

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (7)
IJESA
July 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (7)

فعلا آورباخ يلمح إلى شيء خطير جداً وهو أن قواعد الفن والنقد الأدبي المستوحاة من الإرث الكلاسيكي فرضت على الثقافات الغربية تصوراً كارثياً للتاريخ. هناك أولاً ما يسمى في تاريخ النقد الأدبي الغربي بقاعدة "الفصل بين الأساليب" (the rule of the separation of styles) التي صاغها هوراس (Horace) في العصر الروماني. عرفت هذه القاعدة عبر التاريخ الأوروبي على أنها إرث كلاسيكي ولها تأثير مؤسس للأدب والفن الغربي. تقول القاعدة أن المواضيع التي تتناول حياة وقضايا الطبقة الأرستوقراطية يجب أن تكتب بأسلوب جدي وتعظيمي (tragic style)، والقضايا والمواضيع التي تتناول حياة الطبقة الفقيرة أو الكادحة يجب أن تكتب بأسلوب كوميدي تغلب عليه السخرية والتهكم (comic style). في القرن السابع عشر الميلادي، كانت هذه القاعدة الأدبية مرسخة في فرنسا بقوة القانون، والكتاب والأدباء الذين تجرأوا على مخالفة هذا القانون عوقبوا بشدة، كما حدث للكاتب المشهور كورناي (Corneille) الذي تجرأ ومزج الأسلوبين التراجيدي والكوميدي (tragicomedy) في مسرحية "السيد" (Le Cid). ومع أن المسرحية لقت نجاحاً كبيراً، إلا أن الأكاديمية الفرنسية والنخبة المثقفة هاجموا المسرحية بشدة لدرجة أن الكاردينال ريشليو (Richelieu)، الحاكم الفرنسي آنذاك، أمر بفتح تحقيق في الموضوع انتهى بتوبيخ كورناي، واعتزال الأخير الكتابة لعقد من الزمن، ولما رجع بدأ بتصحيح وإعادة نشر مسرحية "السيد" حسب الضوابط النقدية المقبولة، وتضمنت النسخة الجديدة إهداء إلى ريشليو.

أدى ترسيخ قاعدة الفصل بين الأساليب في الثقافة الأوروبية، حسب آورباخ، إلى تصور للأدب وللتاريخ يفتقد القدرة على التعامل بجدية مع الحياة الاجتماعية، حيث أن كمية هائلة من الواقع المعاش، خصوصاً حياة الطبقات السفلى من المجتمع، تجد نفسها غير جديرة بتعامل العلماء والمؤرخين والأدباء معها بشكل جدي. ويبقى فقط واقع الطبقات العليا من المجتمع هو الجدير بالتعامل الجاد في الأدب والتاريخ. وفعلاً ففكرة أن التاريخ سجلاً للأحداث الضخمة والشخصيات الكبيرة فقط طاغية في تاريخ الثقافة الأوروبية. وفكرة أن التاريخ هو مجموع التجارب الإنسانية حديثة العهد. ففي القرن التاسع عشر فقط لاحظ كارل ماركس أن التاريخ يكتب وراء ظهر الإنسان البسيط. هذا الفهم المغلوط لما هية التاريخ لازال يداهمنا في العالم العربي، وأشير على سبيل المثال إلى المرات التي سألت فيها الطلاب "هل أنتم داخل التاريخ أم خارجه؟" وأفاجئ معظم الأحيان بجواب سلبي وكأن التاريخ عبارة عن موسوعة غينس فقط ومعظمنا لا يستحق ولا يحلم حتى أن يكون جزأ منها.

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

بالإضافة إلى قاعدة الفصل بين الأساليب، يشير آورباخ إلى ظاهرة أدبية أخرى أعاقت تطور الفكر التاريخي في أوروبا وهي إعطاء عصر معين أو حقبة معينة صورة مثالية تتراكم حولها تصورات مطلقة في الجمال أو العدل أو الإيمان إلخ. تكتسب هذه الحقبة الزمنية نوعاً من القداسة تجعل منها معياراً أو مسطرة يقاس بها كل حدث وكل جهد إنساني في الحاضر. فتكتسب هذه الحقبة دوراً تشريعياً، يقرر أنماط العيش المقبولة والغير مقبولة في الحاضر. وبالطبع فقط أنماط العيش في الحاضر التي تتطابق ملامحها مع هذه الحقبة المثالية سوف تعتبر بأنها "تاريخ"، وتهمش وتشيطن وتحارب الممارسات الإنسانية التي لا يتطابق مع هذا التصور المثالي والغير واقعي واللاتاريخي.

المثير هنا أن آورباخ لا يفصح إذا كان يتكلم عن حقبة معينة من تاريخ أوروبا، ولكن القارئ المتمعن يستطيع أن يجزم أن آورباخ يتكلم هنا عن صورة ومكانة اليونان القديم في المخيلة الأوروبية. السياق التاريخي والأحداث التي واكبت كتابة آورباخ لهذا الكتاب تشير أنه يتحدث عن طغيان صورة اليونان القديمة التي طورها الأوروبيون في المخيلة الأوروبية الحديثة بصبغة مثالية مطلقة. تبدو كلمة "طغيان" هنا قوية اللهجة ولكنها تعكس الوضع وأشير هنا فقط إلى كتاب إيليزبث باتلر الشهير في هذا الموضوع "طغيان اليونان القديم على المانيا". [4] آورباخ لم يكن يستطيع التطرق إلى هذا الموضوع بحرية، لأن التيار الكلاسيكي (Classicism) الذي طور الصورة النمطية لليونان القديمة كان مازال قوياً ومسيطراً على الحياة السياسية والثقافية في ألمانيا وفي باقي الدول الغربية التي كان آورباخ يحاول طلب اللجوء إليها. فأوروبا تستمد هويتها العرقية والعلمانية من فكرة المجد اليوناني، وكانت وما تزال هذه الصورة النمطية لليونان القديم لبنة أساس للحضارة الأوروبية، لا يباهيها حتى النص الديني والهوية الدينية المسيحية.

لهذه الاعتبارات، اكتفى آورباخ في الفصل الأول من الكتاب بالرفض المبطن للنص الكلاسيكي ولم يكن يستطيع التعبير على رفض علني، ولم يستطع أن ينتقد التقديس المفرط واللاتاريخي للحضارة اليونانية في المخيلة الأوروبية، واكتفى بوصف المنهج التاريخي الذي يقدس عصراً ما ويطفئ صبغة "التاريخية" فقط على تلك جوانب من الحاضر التي تتطابق مع الصورة النمطية للماضي المثالي. في الأساس، يقول آورباخ، لا يجب أن نحكم على الأزمنة والمجتمعات بمفهوم نمطي لما هو مرغوب بالمطلق، وإنما يجب النظر في كل حالة حسب فرضياتها.... الطريقة التي ننظر بها إلى الحياة الإنسانية والمجتمع هي نفسها سواء كنا معنيين بالماضي

[4] Elizabeth Butler, The Tyranny of Greece over Germany: A Study of the Influence Exercised by Greek Art and Poetry Over the Great German Writers of the Eighteenth, Nineteenth and Twentieth Centuries (Cambridge University Press), 1935.

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

أو بالحاضر، وأي تغيير في الطريقة التي ننظر بها إلى التاريخ سوف ينعكس على الطريقة التي ننظر بها إلى الأوضاع الحالية (391).

في الوقت الذي كان آورباخ هاربا، كان عميد الدراسات الكلاسيكية في المانيا، فرنر ياكر (Werner Jaeger) لا زال يشدد على ضرورة استعمال النصوص الأدبية فقط لقراءة تاريخ اليونان القديم. وكان يحذر بشدة من استعمال الحفريات التي كانت تظهر بكثافة منذ أواخر القرن التاسع عشر، وأصبحت تعطي صورة أكثر واقعية للحضارة اليونانية، بعيدة كل البعد عن الصورة النمطية التي اعتمدتها الأكاديميات والرأي العام الأوروبي. بالفعل فقد أظهرت الحفريات والحجج الغير أدبية أن المجتمع اليوناني القديم كان بدائياً، وكان يغلب على ثقافته الشفوية والأعراف القبلية مثله مثل كل المجتمعات القديمة. فكان من الضروري لياكر ولحراس المؤسسة الأكاديمية الرسمية أن يحتموا بالنصوص الأدبية اليونانية القديمة كمحاولة أخيرة بائسة للمحافظة على الصورة النمطية لليونان القديم وأسطورة المجد اليوناني القديم (the glory that once was Greece).

أصر فرنر ياكر، إلى آخر نفس من حياته، أن (Kultur) - أي ثقافة أوروبا المبنية على فكرة المجد اليوناني، والتي وحدها تستحق أن تسمى ثقافة في نظره - يجب أن تميز عن الصورة الأنثروبولوجية لليونان القديم التي كان يكونها آنذاك علم الحفريات والتاريخ. "الأشياء"، ويعني بها الحفريات، "فيها غموض وتقطع، وشهادتها لا تستطيع أن تكون صورة عضوية متكاملة. النصوص الأدبية فقط تستطيع أن تقوم بذلك. الأدب هو طريقنا الوحيد إلى حياة الماضي الروحية ولا توجد هناك قرائن أو بيانات أخرى تستحق الذكر". [5]

نستخلص من هذه القراءة لكتاب آورباخ أن الحضارة الأوروبية تحتوي على تجربة فريدة في علاقة الأدب مع قراءة وتصور التاريخ. نستخلص أن أوروبا أخذت حقبة تاريخية في الماضي ورفعتها إلى مرتبة مثالية مختلفة تماماً عن الواقع التاريخي. نستخلص أيضاً أن الأدب والنقد الأدبي كان لهما دور محوري في إنتاج وتثبيت هذه الصورة النمطية المثالية للماضي. بالفعل، الأسطورة الأوروبية عن اليونان القديم كانت أولاً وقبل كل شيء تركيبة أدبية وفنية تجنبت كل القرائن والحجج الأخرى في قراءة التاريخ. نتعلم أيضاً أن من عواقب هذه التجربة أن التصور الأوروبي للتاريخ همش لقرون طويلة مساهمة وواقع الإنسان البسيط في التاريخ، وأنكر تاريخية جوانب كبيرة من الحاضر الأوروبي لأن ملامحها لا توافق الملامح الأسطورية للحقبة المثالية.

[5] Werner Jaeger, Paideia: The Ideals of Greek Culture, Gilbert Highet (trans.) New York: Oxford University Press, 1945, p. xi

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)

المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب

IJESA

Vol. (3), No. (7)   July 2024   الإصدار (3)، العدد (7)

وإذا كان آورباخ في غير قادر في 1946 أن ينتقد الثقافة الكلاسيكية وينتقد تمجيدها للفن بمرجعية يونانية، فقد أثبتت عدة دراسات حديثة أن التيار النازي لم يستعمل الفن والأدب كدعاية جوفاء لأغراض سياسية فقط، كما استخلص الجيل الأول والثاني من مؤرخي الحرب العالمية الثانية. بالعكس، لقد أظهرت دراسات فرديرك سبوتس (Fredrick Spotts) [6]، فيليب لكولابارث وجون لوك نانسي [7]، وجورج موص (George Mosse) [8] أن النازيين كان لهم تكوين متين في الفن والأدب والثقافة الكلاسيكية، لدرجة أن نظرية الفن الكلاسيكي كانت تشكل عندهم نوعاً من العقيدة، وأنهم كانوا جديين في تطبيق هذه النظريات في كل خطوة من برنامجهم السياسي. كان هتلر ورفاقه النازيين يقيمون ممارسة السياسة نفسها بمعايير الفن الكلاسيكي التي ينتقدها آورباخ، والتي يلمح بأنها تحتوي على بذور التعصب النازي الذي شرده وأغرق العالم في كوارث وحروب.

لا يجب أن نفهم هنا أن علاقة الأدب والفن بالتاريخ هي في جوهرها علاقة مرضية. طبعاً لا. هناك تركيبات معينة للأدب مع التاريخ لها عواقب كارثية مثل الظاهرة الأوروبية التي أشرنا إليها أعلاه. كما هناك منظومات فكرية أخرى مثل الدين والعرق والقومية والطائفية بإمكانها أيضاً تشكيل تركيبات مرضية بقراءات معينة للتاريخ، قراءات جزئية، تهميشيه أو تقديسيه ترمي بمعايير البحث العلمي والفكر النقدي عرض الحائط من أجل قراءات مسيسة ومؤدلجة. وطبعاً هناك بالمقابل تركيبات لكل هذه المنظومات الفكرية قادرة أن يكون لها أثر تنويري ونتائج صحية على المجتمعات.

تركيبة نظرية الفن وقراءة التاريخ التي استعرضناها مع آورباخ والتي كان لها عواقب كارثية مع وصول الفاشية والنازية إلى الحكم في أوروبا هي قراءة للتاريخ في إطار "المرغوب المطلق"، كونت أوروبا بواسطتها صورة غير تاريخية لليونان تنتمي إلى عالم المثالية. وطبعاً أوروبا كانت هنا معنية بتشكيل ذاتها وهويتها وليس بتكوين رؤية تاريخية واقعية عن حقبة معينة من التاريخ. وهناك أصوات اليوم تقول: أين المشكل في ذلك؟ التاريخ أيضاً كتابة إبداعية والموضوعية وهم والواقعية تقييد للفكر، وأن كتابة التاريخ لا تختلف عن الكتابة الخيالية مثل الرواية أو المسرح.

---

[6] Frederic Spotts, Hitler and the Power of Aesthetics, New York: The Overlook Press, 2009.
[7] Philip Lacoue-Labarthes and Jean-Luc Nancy, “The Nazi Myth,” Critical Inquiry vol. 16, no. 2, Winter 1990.
[8] George Mosse, “Fascist Aesthetics and Society: Some Considerations,” Journal of Contemporary History, vol. 31, no. 2, April, 1996.

تعبر هذه الأصوات عن قراءة سطحية، خصوصاً لفكر ما بعد الحداثة. فهي غير واعية بأن المكون المهم في فكر ما بعد الحداثة هو بنية الفكر وليس محتواه. فالتاريخ ليس قضية مضمون فقط، يغير أو يلقح كما نريد، وإنما هو بنية فكرية تتكون عبر القرون بفعل تراكمات وترسبات. وتشكل هذه البنية الهيكلة التي تحدد الإطار والمرجع الإبستمولوجيي للفكر وتحدد مناهجه وحتى محتواه. ولأن هذه الهياكل والبنى تستطيع أن تضبط وتكيف الفكر لمئات السنين فهي بمثابة لا شعور معرفي (an epistemological unconscious). وهنا تصبح مهمة البحث العلمي هي التنقيب عن هذه البنى وكشف تأثيرها، ليس للتشهير أو للهدم، أو للبحث عن أصالة زائفة، وإنما لتجديد هيكلة النظام المعرفي بما تتطلب مستجدات العصر وما يمليه رهان المستقبل، والتخلص من الهياكل التي كيفت الإنتاج والتراكم المعرفي لتلبية متطلبات عصور ولت واحتياجات أسبابها ودواعيها انقرضت. فالهدف ليس هنا التفكيك من أجل التفكيك (la déconstruction pour la déconstruction)، وإنما التخلص من المفارقات التاريخية (anachronism) وعصرنة هياكل الإنتاج والتراكم المعرفي.

هذا ما قام به آورباخ بالتحديد عندما كشف الدور الذي لعبته قاعدة التمييز بين الأساليب في ترسيخ هياكل معينة لفهم وقراءة التاريخ والتي كانت عواقبها السياسية كارثية. فآورباخ لم يكن معنياً بمحتوى كتب التاريخ عن العصر اليوناني، وإنما ببنية معرفية رسخت مناهج كتابة التاريخ على أساس قيم ومفاهيم أدبية خارجة عن الزمان والمكان، أي أنها لا تاريخية (ahistorical)، نتج عنها مفهوم إيديولوجي وقراءات إيديولوجية للتاريخ أقصت جوانب مهمة من الواقع المعاش، وكانت لها عواقب سياسية كارثية.

في الثقافة العربية، يطرح محمد عابد الجابري إشكالية هياكل الإنتاج المعرفي من زاوية فريدة من نوعها، وهي زاوية البنى الزمنية للتراث العربي-الإسلامي. وهذه إشكالية أيضاً تتورط فيها مجالات مختلفة من العلوم الإنسانية، خصوصاً الأدب والتاريخ والفلسفة. الجابري يركز على هياكل التنظيم الزمني التي تنظم تاريخ الفكر العربي في الوعي العربي. تاريخ الثقافة العربية، يقول الجابري، يفتقد لإطار زمني موحد ينظم وينسق تسلسل الفكر الزمني مع التسلسل المعرفي أو الإبيستيمولوجي، ويملأ الفجوة الزمنية والمعرفية بين محتوى الفكر، من جهة، والوعي بمحتوى هذا الفكر، من جهة أخرى. يقدم الجابري هذه الفكرة في كتابه "تكوين العقل العربي"، حين يتطرق إلى إشكالية تأريخ (historicization) الفكر العربي. [9] جدير بالذكر أن الجابري يحلل هذا الموضوع من محورين: (1) محور الفكر كمحتوى، و (2) محور الوعي بهذا المحتوى. وطبعاً الفكر

[9] محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
Vol. (3), No. (7)
IJESA
July 2024
الإصدار (3)، العدد (7)

كمحتوى له أزمنة أو إطارات زمنية مختلفة. وهذه الأزمنة تختلف عن زمان أو أزمنة الوعي بهذا الفكر. وأساس إشكالية تأريخ الفكر العربي، كما يطرحها الجابري، هي تنظيم هذه الأزمنة في الوعي العربي، وتنظيم حركة المرور بين الوعي والمحتوى، ليس فقط للحفاظ على التسلسل الزمني وإنما للحفاظ على التسلسل الإبستيمولوجي، خصوصاً وأننا نتحدث هنا عن تاريخ الفكر والثقافة وليس عن تاريخ أحداث.

الثقافة الأوروبية، يقول الجابري، تؤرخ لفكرها انطلاقاً من ميلاد المسيح ويمتد فكر الأوروبيين في وعيهم من القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد إلى عصرنا الراهن. ويصنفون هذا الفكر إلى ثلاثة عصور ثقافية: العصر القديم (اليوناني-اللاتيني) والعصر الوسيط (المسيحي) والعصر الحديث (من عصر النهضة الأوروبية إلى الأن). وسواء كانت هذه الاستمرارية حقيقية أو موهومة، سواء كان هذا التقسيم والتصنيف مطابقاً للواقع التاريخي أو مفبركاً، إننا هنا أمام استمرارية تاريخية تشكل إطاراً مرجعياً ثابتاً وواضحاً، وظيفته على مستوى الفكر هو تنظيم التاريخ زمنياً والفصل فيه "بين ما قبل وما بعد بصورة تجعل من المستحيل التطلع، حتى على صعيد الوعي الحالم، إلى عودة ما قبل ليحل محل ما بعد." هذه الاستمرارية، حقيقية كانت أو موهومة، تنظم الوعي التاريخي. فالأوروبيون لا يحسوا أن تاريخ فكرهم عبئ عليهم، وفكرة التنكر لإرثهم الفكري غير واردة إطلاقاً. بالإضافة، التنظيم والاستمرارية تمنعهم من أن يجعلوا هذا الماضي أمامهم فيقرؤوا فيه مستقبلهم. الماضي يحتل هنا مكانه الطبيعي في تاريخ الفكر وفي الوعي بتاريخ هذا الفكر (الجابري ص. 43).

بالمقارنة، يقول الجابري، لا نؤرخ نحن العرب لثقافتنا بالقرون إلا تصنعاً، فنحن مازلنا نؤرخ لها بزمن الأسر الحاكمة، فنقول: الأدب أو الفكر في "العصر الأموي" أو في "العصر العباسي" إلخ. وإذا تبنينا التصنيف الأوروبي كإطار مرجعي، نصنف تاريخ الثقافة العربية إلى زمنين: الثقافة العربية في "القرون الوسطى" والثقافة العربية في "العصر الحديث". أما "العصر القديم" فلا مكان له في التاريخ العربي، الشيء الذي يجعل "القرون الوسطى" العربية تفقد ما يبرر "وسوطيتها". بالإضافة أننا نستعمل التاريخ الهجري لما نتكلم عن الزمن الأول (القرون الوسطى) الذي نمدده إلى القرن السابع الهجري (14 م)، ثم نقفز إلى التاريخ الميلادي بالنسبة للزمن الثاني، زمن الفكر العربي في "عصر النهضة" (القرن 19م). بين القرن السابع والثالث عشر الهجري (14 إلى 19م)، هناك ما يسميه الجابري "حلقة مفقودة في التاريخ العربي ... وأيضاً ثغرة عميقة ومشوشة في الوعي العربي" (ص. 44).

صحيح أننا نفصل زمنياً بين العصر الجاهلي، العصر الإسلامي وعصر النهضة، ولكن هذا الفصل سطحي لأننا لا نعيشه في وعينا وتصورنا كمراحل تطور معرفي إبيستيمولوجي، ألغى اللاحق منها السابق. بالعكس إننا نتعامل

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)

IJESA

المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب

Vol. (3), No. (7) July 2024 الإصدار (3)، العدد (7)

مع هذه العصور الثلاثة كجزر معرفية منفصلة ومعزولة عن بعضها البعض. فالتسلسل الزمني لا يعكس تسلسلاً معرفياً أو إبستيمولوجيا. فالهوة المعرفية التي تفصل في وعينا بين ما نسميه "العصر الجاهلي" و"العصر الإسلامي" لا تقل عمقاً واتساعاً عن الهوة التي تفصل بين "العصر الإسلامي" و"عصر النهضة". والنتيجة أننا نتنقل بين منظومتين معرفيتين مختلفتين تماماً، لكل منهما زمنها الخاص أو زمنيتها (temporality) الخاصة وتسلسلها المعرفي الخاص.

لإن الجهد الفكري لم يبذل بعد لتصنيف وتنظيم الإرث الفكري العربي-الإسلامي في وعينا بطريقة حديثة تساير العصر ومتطلباته وتنسق بين البعد الزمني والإبيستمولوجي، فإننا نعيش هذا الفكر في وعينا كتاريخ ممزق. نعيش عصور الثقافة العربية الثلاثة – الجاهلي، الإسلامي، النهضة – كجزر ثقافية ذات حضور متزامن في الوعي والتصور العربي، فهي حاضرة كمحتوى، كمناهج وكأنماط تفكير. وهكذا يتناوب الماضي مع الحاضر في ساحة الوعي العربي، بل قد ينافس الأول منهما الثاني منافسة شديدة حتى ليبدو وكأنه هو نفسه الحاضر" (ص. 44). وعندما نأخذ في عين الاعتبار مفعول الترجمة والاحتكاك مع الثقافات الأخرى، المسألة تتعقد أكثر. فالفكر اليوناني الذي ترجمه العرب في العصور الوسطى والفكر الغربي الذي يترجم في عصرنا الحالي لهم كلاهما أزمنة ثقافية معينة، وعدم فهم هذه الأزمنة وتصنيفها داخل الوعي العربي الذي يستقبلهم سوف ينتج فوضى زمنية معرفية أكبر.

ولابد من التوضيح هنا أن العطل ليس في محتوى الفكر العربي، وإنما في وعينا به، لأننا لم نتمكن بعد من ترتيب العلاقة الزمنية-المعرفية بين أجزاء هذا التراث من جهة، وبينه وبيننا من جهة أخرى (ص. 46). فأجدادنا كتبوا هذا التاريخ تحت ضغط صراعات العصور التي عاشوا فيها، وفي حدود الإمكانيات العلمية والمنهجية التي كانت متوافرة لهم. اللوم كل اللوم علينا نحن، يقول الجابري، لأننا تعاملنا بانقياد أعمى مع ما كان نتاجاً لظروف تاريخية خاصة وكأنه حقيقة مطلقة. فتاريخ الفكر والثقافة العربية اليوم "هو مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج، بشكل رديء، لنفس التاريخ الذي كتبه اجدادنا (ص. 46). وبالتالي فنحن مازلنا سجناء الرؤية والمفاهيم والمناهج القديمة التي وجهتهم، مما يجرنا، دون أن نشعر إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، إلى جعل حاضرنا مشغولاً بمشاكل ماضينا وبالتالي النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي وصراعاته" (ص. 46).

الهياكل الزمنية للفكر العربي-الإسلامي في وعينا، كما يصفها الجابري، هي هياكل راكدة. كل ما تستطيع هذه البنية أن تقدمه لنا هو "معرض" أو "سوق" للبضاعة الثقافية الماضية وكأنها تحيا كلها زمناً واحداً يعاصر فيه

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4 E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)

المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب

Vol. (3), No. (7) IJESA July 2024 الإصدار (3)، العدد (7)

القديم الجديد، كما تعاصر البضاعة القديمة البضاعة الجديدة في المعارض والأسواق. فتظهر أمامنا حلقات الماضي كمشاهد متزامنة وليس كمراحل متعاقبة، ويتحول حاضرنا إلى معرض لمعطيات ماضينا، ونعيش ماضينا في حاضرنا بدون حس تاريخي. فوعينا التاريخي "يقوم على التراكم وليس على التعاقب، على الفوضى، وليس على النظام" (ص. 47).

تاريخ الفكر العربي-الإسلامي له أيضاً علاقة مضطربة مع تاريخ الفكر العالمي، وهذا على حساب دور الفكر العربي-الإسلامي ومكانته في التاريخ العالمي. فقد بني تاريخ الثقافة الأوروبية على شطب الدور الأساسي للفكر العربي في تكوين الفكر العالمي الحديث. وإذا أنصف مؤرخو الغرب، يصنفون الفكر العربي بأنه حلقة وصل مؤقتة بين اليونان وأوروبا، استغنت عنها أوروبا سريعاً بعودتها إلى المراجع الأصلية اليونانية. وفي الواقع الفكر العربي لم يكن مجرد حلقة وصل، بل كان إعادة إنتاج كاملة للفكر اليوناني، والفكر الأوروبي في بدايته كان إعادة إنتاج للثقافة العربية الإسلامية. فالثقافة العربية الإسلامية لها حضور مؤسس في التاريخ الثقافي العالمي، وليست مجرد وسيط مؤقت. ولن يستطيع العرب والمسلمين أن يثبتوا ذلك، مادامت البنية الزمنية-المعرفية التي تنظم تاريخ فكرهم في وعيهم تلبي حاجيات عصور ولت. ولهذا كل ما نستطيع فعله هو الادعاء والتنويه العاطفي (ص. 48).

الفوضى الزمنية-المعرفية التي ينقب عنها الجابري تسمح لنا بكتابة تاريخ للفكر العربي-الإسلامي تتراكم فيه المعطيات وتتردد فيه المشاهد، ولكنه سيكون تاريخاً فاقداً لتاريخيته، بمعنى أنه استعراض فقط لمحتوى فكري، فاقد للبعد الزمني-الإبيستيمولوجي، غير قادر أن يفسر الفجوة الزمنية-المعرفية التي تربط أطراف هذا الفكر ببعضه، وارتباط هذه الأطراف بزمننا وبمعارفنا. ففعلاً مسؤولية العصر كما يقول الجابري هي إعادة التاريخية لتاريخ الفكر العربي. بمعنى آخر، يجب التنقيب والكشف بأي ثمن، كما يقول عبد الوهاب بوحديبة، عن الهياكل الأزلية التي كيفت الإنتاج والتراكم المعرفي لتلبية متطلبات عصور مضت واحتياجات أسبابها ودواعيها انقرضت. ويجب بناء هياكل لإنتاج المعرفة وتنظيمها تلبي حاجيات العصر وقادرة أن تكسب رهان المستقبل.

نتائج الدراسة

1. إريك آورباخ وكتابه Mimesis:

- كتاب آورباخ هو عمل موسوعي يحتوي على 700 صفحة ويعتمد على نصوص من خمس أو ست لغات أوروبية.

- كتب آورباخ هذا الكتاب أثناء هروبه من ألمانيا النازية معتمدًا على ذاكرته بسبب قلة المراجع المتاحة في إسطنبول.

2. قاعدة الفصل بين الأساليب:

- يبرز آورباخ تأثير قاعدة الفصل بين الأساليب التي صاغها هوراس في الأدب الأوروبي، حيث يتم التعامل بجدية مع حياة الطبقات الأرستقراطية بينما يتم التعامل مع حياة الطبقات الفقيرة بأسلوب كوميدي ساخر.

- تأثير هذه القاعدة أدى إلى تصور أدبي وتاريخي يفتقر للجدية في تناول الواقع الاجتماعي للحياة اليومية للطبقات الدنيا.

3. تصوير الحقبة المثالية:

- يشير آورباخ إلى ظاهرة مثالية العصور التاريخية، حيث يتم تصوير عصر معين كمعيار مطلق للجمال أو العدل أو الإيمان.

- أثر هذا التصوير المثالي على التفسير التاريخي للأحداث والأنماط الحياتية في الحاضر.

4. اليونان القديمة في المخيلة الأوروبية:

- يلمح آورباخ إلى الطغيان المثالي لصورة اليونان القديمة في المخيلة الأوروبية الحديثة وكيف أنها أثرت على قراءة وتصور التاريخ.

- تأثير النصوص الأدبية في الحفاظ على الصورة المثالية لليونان القديمة وتجنب القرائن الأثرية الأكثر واقعية.

https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n7p4
E-ISSN 2976-7237

5. النازية واستخدام الأدب والفن الكلاسيكي:

- أثبتت الدراسات الحديثة أن النازيين لم يستعملوا الفن والأدب فقط للدعاية السياسية، بل كان لديهم تكوين متين في الفن الكلاسيكي واعتبروه عقيدة.

6. إشكالية هياكل الإنتاج المعرفي في الثقافة العربية:

- يتناول محمد عابد الجابري إشكالية التنظيم الزمني للإرث الثقافي العربي-الإسلامي وكيف أنها تفتقر إلى إطار زمني موحد ومنسق.
- التداخل بين الأزمنة الثقافية المختلفة أدى إلى فوضى زمنية معرفية في الوعي العربي.

توصيات الدراسة

1. إعادة النظر في مناهج تدريس الأدب:

- يجب أن تتناول مناهج تدريس الأدب نقاط النقد التي أشار إليها آورباخ لتقديم فهم أعمق وأكثر واقعية للأدب والتاريخ.

2. تطوير فكر نقدي جديد في قراءة التاريخ:

- الحاجة إلى تجديد هيكلة النظام المعرفي بما يتناسب مع مستجدات العصر وتحديات المستقبل، والتخلص من الهياكل التي تساهم في تكوين قراءات تاريخية منحازة أو غير واقعية.

3. تنظيم الإرث الفكري العربي:

- تنظيم العلاقة الزمنية والمعرفية بين أجزاء التراث العربي-الإسلامي وبين الواقع الحالي، من أجل خلق تسلسل معرفي وزمني يمكن من قراءة تاريخية أكثر دقة وواقعية.

4. تشجيع الدراسات البينية:

- تعزيز التعاون بين الأدب والتاريخ وعلم الآثار لفهم أكثر شمولية ودقة للحقب التاريخية المختلفة، بعيدًا عن الصور النمطية والأيديولوجية.

5. تنمية وعي نقدي لدى الطلاب:

- يجب أن يتعلم الطلاب كيفية التعامل النقدي مع النصوص الأدبية والتاريخية، والتفريق بين الحقيقة التاريخية والتمثيلات الأدبية المثالية.

المراجع

- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.
- Frederic Spotts, Hitler and the Power of Aesthetics, New York: The Overlook Press, 2009.
- Philip Lacoue-Labarthes and Jean-Luc Nancy, “The Nazi Myth,” Critical Inquiry vol. 16, no. 2, Winter 1990.
- George Mosse, “Fascist Aesthetics and Society: Some Considerations,” Journal of Contemporary History, vol. 31, no. 2, April, 1996. [1] Werner Jaeger, Paideia: The Ideals of Greek Culture, Gilbert Highet (trans.) New York: Oxford University Press, 1945, p. xi.
- Elizabeth Butler, the Tyranny of Greece over Germany: A Study of the Influence Exercised by Greek Art and Poetry Over the Great German Writers of the Eighteenth, Nineteenth and Twentieth Centuries (Cambridge University Press), 1935.
- James Porter, “Erich Auerbach and the Judaizing of Philology,” Critical Inquiry 35, autumn, 2008.
- Princeton, NJ: Princeton University Press, 1974, orig. 1953.